إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الخامسة ـ العدد العشرون ـ شتاء ١٣٩٤ش/كانون الأول ٢٠١٥م
صص ١٦٨ ـ ١٤٣

دراسة بنية ومضمون الحوار الأدبي (المناظرة) في أدب العصر المملوكي

عليرضا نظري (الكاتب المسؤول)*
مريم فولادي**

الملخص

تعتبر المناظرة فنّا من الفنون الأدبية فهي معروفة عند وقت طويل في الأدب العربي وكانت متداولة بين الشعراء والكتّاب. تشكل هذا النوع الأدبي من تقليد المناظرات الواقعيّة، محادثة عدائيّة أو وديّة بين طرفي المناظرة وأحياناً يكون انساناً، حيواناً، نباتاً أو مفاهيم انتزاعية من الطبيعة وغيرها من العناصر. ولأنَّ هذا النوع الأدبي كان موجوداً في الأدب المملوكي بشكلٍ بارزٍ ولامعٍ وبناءً على ذلك، كانَ هذا البحث بأسلوب وصفي – تحليلي ليبحث في أدب المماليكَ بقسميه: النظري والعملي؛ ففي القسم النظري انكبَّ هذا البحث على تعريف هذا النوع الأدبي (المناظرة)، وفي القسم العملي ذكر نماذج وأمثلة من المناظرات المنظومة والمنثورة في هذه الفترة الزمنية. تشير النتائج إلى أنّه في المناظرات الشعرية (المنظومة) أكثر ما يكون التركيز على المحادثات بمعناها العام وبين البشر حيث كانت قصيرة وبدون حكم. أمّا المناظرات المنثورة فأكثرها بمعنى خاص وطبق قواعد خاصة، ترتبط بين العناصر غير البشرية حيث إنها أحياناً لديها جانب تعليمي أو ديني أو مدحي وبعض الأوقات الجانب الترفيهي.

الكلمات الدليلية: الأدب العربي، النظم والنثر، العصر المملوكي، فن المناظرة.

---

*. أستاذ مساعد بجامعة الإمام الخميني الدولية، قزوين، إيران
a.nazari@hum.ikiu.ac.ir
**. طالبة في اللغة العربية وآدابها بجامعة الإمام الخميني الدولية، قزوين، إيران
التنقيح والمراجعة اللغوية: د. حسن شوندي
تاريخ الوصول: ١٣٩٤/٢/١٢ش تاريخ القبول: ١٣٩٤/٧/١٨ش

المقدمة

غالبـاً ما يأتى ذكر دولة المماليـک بعنوان فترة زمانية منحطـة ومظلمة من تاريخ سـقوط بغداد على يـد هولاكوخان (٦٥٦ هـ ق) إلى عـام (٩٢٢ هـ ق) حيث أصبح العثمانيون أصحاب قوة وقدروا وأداموا ذلک الانحطاط.

والحـدث الأهم الذى حصل فى فترة دخول هولاكو إلى بغداد هو أمره بقتل الكثير مـن العلماء وكبار العلم والأدب وتلاشـى وضياع الكثير مـن الكتب والآثار العلمية والأدبيـة القيّمـة، على هذا يمكن القـول إنَّ هذه الفترة الزمنيّة هى عهد تلاشـى العلم والأدب ولكـن ليس هذا التلاشـى أو الأفـول إلى حدٍ يصِفُهُ بعـض الكتب التاريخية والأدبية. لأنه فى هذه الفترة كان لدينا الكثير من الآثار الهامة والتى ليست فقط تقليداً محضـاً من الأدوار الأدبية السـابقة بل إنّها تعتبر ابتكارا أدبيـا أو أنَّ ظهورها الأقوى والبارز كان فى هذه الفترة، لذا فإنّه من الواجب، الاهتمام بتلک الحقبة الزمنية وإظهار النقاط الإيجابية الساطعة فيها أكثر من قبل.

واحـد من الفنون الأدبيّة التى ظهرت آنذاک وأصبحت ضرباً من الالتزام والتى هى جديرة بالبحث، (فن المناظرة)، وهناک نماذج شعرية ونثرية مهمة من الشعراء والكُتّاب اختصت بهذا المجال.

وحفلت كتب الأدب واللغة والتاريخ بالنصوص التى تدلّ على بلوغ المناظرة مكانة رفيعـة بين فنون الأدب المختلفة، وعلى الرغم مـن ذلک لا نجد من الأدباء والمورخين مَن يفردُ لها بحثاً خاصاً وإنَّما دارت البحوث حول القصة والمسرحية والخطبة والرسالة، والحقيقة أنَّ المناظرة، فن أدبى مسـتقل له سماته وأهدافه وخصائصه. (غلامحسـين زاده والزمـلاء، ١٤٣٢ق: ٢٢) وهـى عبارة عن أنَّ الشـاعر أو الكاتب يضع طرفى المناظرة قبـال بعضهما الآخر ويجبرهما على الحديث بموضـوعٍ معينٍ وفى النهاية يتفوق أحدهما علـى الآخر. (داد، ١٣٧١ش: ٢٧٧) لذا فإنَّ هـذا البحث يختص بهذا النوع الأدبى فى تلک الفترة الزمانية حتى يسـلط الضوء علـى الآثار الجيدة فى ذلک الظلام التاريخى. وسـيكون البحـث فى بنيته على منهج وصفـى – تحليلى ويتناول الموضوع فى قسـميه النظرى والتطبيقى.

من جملة الأسئلة التي يسعى هذا البحث للإجابة عنها: ١- إنّه على أي أساس وبأي دليل نستطيع أن نعتبر المناظرة فناً أدبياً مستقلا؟ ٢- ما هي أهم المواضيع التي طرحت من خلال المناظرات الأدبية في تلك الفترة؟ ٣- كيف يقيّم منشأ المناظرات في العهد المملوكي؟

والفرضيات التي يمكن طرحها للأسئلة المذكورة هي: ١ـ بما أن المناظرة أسلوب أدبي يدوم على العصور المتوالية منها المملوكي وبما فيها من الأغراض والبنى التخاطبية يمكن عدّها فنا رائعا أدبيا يتمثل في الشعر والنثر ٢ـ الموضوع الرئيس في المناظرة هو التفاضل حيث يظهر في التخاطب بين الأشخاص والأشياء المتنوعة وأما سبب التفاضل فيختلف من مناظرة إلى أخرى ٣ـ يمكن أن نعدّ المناظرة في ذروة جمالها وأدبيتها في هذه الفترة ومن أكثر الفنون استخداما في الشعر والنثر المملوكي.

خلفية البحث

مع أنّ المناظرة لها سابقة زمنية طويلة في الأدب العربي ولكنها قلما كانت يُعنى بها بالنسبة إلى الأنواع الأدبية الأخرى والكتب والمقالات التي كتبت في هذا المجال قليلة جداً إضافة إلى ذلك فإنّ هذه الأبحاث لم تبحث في أدوار الإنحطاط بشكل خاص بل إنّ قلة الاهتمام بهذا الموضوع هو بحد ذاته جدير بالذكر.

على سبيل المثال في مقالة "المناظرة الأدبية وسماتها الفنية في الأدب العربي" لتمساح علي أحمد النحيلة (كلية اللغة العربية، ١٤١٩ق) تتضمن المقالة فقط عنوانا كليا وشاملا وتبحث عن بعض المناظرات المنثورة. أو مقالة "الحوار في الشعر العربي القديم" لمحمد سعيد حسين مرعي (مجلة جامعة تكريت، ٢٠٠٧م) والتي أيضاً بعنوان ساحر وعام، تتضمن فقط تحليل شعر امرئالقيس. ومن الأبحاث التي أنجزت بشكل مقارن بين الأدبين العربي والفارسي يمكن الإشارة إلى الأبحاث المقارنة بين "المناظرات الأدبيّة المنثورة الفارسية والعربية" لنعيمة حسوكي والتي ذكرت المناظرات المنثورة في كل الأدوار التاريخية (أطروحة دكتوراه، ١٣٨٩ش) أو بهنام فارسي حيث انصرف في رسالة الماجستير إلى بحث مقارن بين "المناظرات الأدبية في الأدبين الفارسي والعربي". بذكر

الأمثلة السابقة يتوضح لنا أنَّ فترة الانحطاط الأدبى لم تكن محط تحليل أو بحث فى أى من الأبحاث السابقة مع أنّ تلك الفترة واحدة من العصور الأدبية المثمرة بهذا النوع الأدبى (المناظرة).

الإطار المفهومى للبحث

١-١- الأنواع الأدبية

قام كبار الأدب بوضع تعاريف كثيرة للأدب من جملتها؛ الجرجانى فى كتابه التعريفات قال: «الأدب عبارة عن معرفة ما يحترزُ به عن جميع أنواع الخطأ، آداب البحث؛ صناعة نظرية يستفيدُ منها الإنسان كيفية المناظرة وشرائطها صيانة له عن الخبطِ فى البحثِ وإلزاماً للخصمِ وإفخامه.» (الجرجانى، ١٤٠٧ق: ٣٦) ففى الواقع إن الأدب بالمعنى اللغوى للكلمة يعنى الثقافة والعلم، الفن، حسن المعاشرة، وبذلک يكون معناهُ تأديبا. وفى الاصطلاح هو علمٌ عرّفه القدماء على أنّه يشتمل على اللغة والصرف والنحو والمعانى والبيان والبديع والعروض والقافية، وقوانين الخط وقوانين القراءة وبعضهم أضاف اشتقاق قرض الشعر والإنشاء والتاريخ. (معين،١٣٨١ش: ٥٧) ولكن الأدب بالتعبير المعاصر يقتصر على الشعر والنثر وما يتصل بهما من الأخبار والأنساب. (أحمد بدوى، ١٩٩٦م: ١٩)

الأدب بشكل أساسى ومحورى قسمان: شعر ونثر. حيث إنَّ كلا من الأقسام السابقة قابلة للتقسيم، فالشعر على أساس ظاهره وقالبه الشعرى؛ إمّا قصيدة أو غزل أو قطعة أو مثنوى و... وعلى أساس المحتوى والموضوع والأسلوب ينقسم إلى أنواع مختلفة كالشعر الحماسى والتعليمى والدينى و... . حيث قام رزمجو فى كتابه الأنواع الأدبية إلى تقسيم الأشعار من حيث المحتوى والمضمون الشعرى ونوع الأفكار والعواطف والحالات والتجارب الشعرية إلى: ١- أشعار حماسيّة ٢- غنائيّة ٣- مدحيّة ٤- تعليميّة ٥- دينيّة ٦- انتقاديّة ٧- رثائيّة ٨- تهنئة ٩- بث الشكوى ١٠- وصفية ١١- القصصيّة ١٢- المناظرة ١٣- عاميّة و محليّة. (انظر: رزمجو، ١٣٧٠ش: ٥٢-٥٣)

يعتقد البعض أنَّ الأنواع الأدبية تنقسم إلى قسمين، حيث إنَّ الأنواع الأدبية الأصلية

في وجهة نظرهم عبارة عن: حماسـّية، غنائيّة، مسـرحيّة، قصصيّة، قصة قصيرة. وأنواع فرعيّة تشمل: مرثية، مفاخرة، مناظرة، هجو، مدح، مناجات، تمثيل، مقالة، حياة الشاعر أو الكاتب. (رحيمي، ١٣٧٤ش: ١٨) تواجهنا أيضاً في النثر أنواع مختلفة، حيث أشـار إليها أحمد بدوى في كتابه "أسس النقد الأدبي" وهي كما يلي:

الرسائل السـلطانية، الرسائل الإخوانية، الرسـائل الأدبية، المقامات، المفاخرات، الحوادث الجارية، رسائل الصيد، عقود الزواج، الإجازات العلمية، التقريض، التهذيب، التاريـخ، القصص، مقدمات الكتب، الهزل. (انظر: أحمـد بدوى، ١٩٩٦م: ٥٧٣-٥٩٣) حيث أنّه طرح المناظرة تحت عنوان المفاخرات.

وبناءً على ذلك فإنّ المناظرة نوع أدبي، حيث إنّها كانت يهتم بها الشعراء والكتّاب في الأدبين الفارسـي والعـربي، منذ القدم. حيـث كانت تظهر أحياناً في قالب شـعرى وأحيانـاً أخرى في قالب النثر. ومن النظـر الأدبي أيضاً لها أهمية بالغة ولأنَّ هذا النوع الأدبي قـد اسـتخدم بقوة في النصـوص الأدبية في العهد المملوكـي. لذلك قمنا ببحث المناظرة في آداب تلك الفترة.

١ـ٢ـ المناظرة:

يقول ابن منظور في لسان العرب تحت كلمة المناظرة: «المناظرة: أن تناظرَ أخاك في أمـرٍ إذا نَظَرتما فيه معاً كيف تأتيانه.» (ابن منظور، ١٤٠٥ق: ٢١٧) وفي الواقع المناظرة في اللغـة تعني «النظـر مع بعضكم البعض، أي التفكير في حقيقة وماهية الأشـياء ومن ثم البحث فيه سـويةً المجادلة والنزاع سـويةً والبحث سويةً في الحقيقة وماهية الأشياء والسؤال والإجابة سويةً والبحث.» (دهخدا، ١٣٧٣ش: ١٩٠٤٥) ولكن في الاصطلاح عبارة عن تبادل الكلام والآراء المتعارضة في موضوع يثير الجدل، كبعض الموضوعات السياسية أو الأدبية. (وهبة، ١٩٨٤م: ٣٩٠)

وأحياناً تكون المناظرة بصورة واقعية وتسـتخدم في العلوم المختلفة منها في المنطق والعلوم الدينية والأبحاث العلميّة والسياسـّية و... وهي في هذه الحال تتطلب شـروطا ورسوما خاصة ولكن مسـألة بحثنا هي المناظرات الأدبية والتي تكون أحياناً بين عدة

أشخاص، على الأخص بين العاشق و المعشوق وأحياناً تكون بين الحيوانات والنباتات والأشياء و... .

ولأنّه فى هذا النوع من المناظرات عادةً ما تتجادل وتتنازع عدة شخصيات خيالية، سواءٌ كانت حيوانا أو نباتا أو أشياء دون روح (جماد) ومفاهيم محضة لذا بعض الشعراء سموّها (نزاع، جدال) ذلک لأنّ كل شخص من هذه الشخصيات يسعى فى مناظرته أن يثبت تفوقه وتميزه على الطرف الآخر وأحياناً تسمى المناظرة مفاخرة. (بورجوادى، ١٣٨٥ش: ٣٢) وطبعاً سميت للمناظرة فى اللغة العربية (بالحوار، المحاورة والمجاوبة).

للمناظرة ثلاثة شروط:

الأول: أن يُجمعَ بين خَصمين متضادَّين أو متباينين فى صفاتهما بحيث تظهر خواصُّها بالمقابلة كالربيع والخريف والصيف والشتاء.

الثانى: أن يأتى كلٌّ من الخصمين فى نُصرته لنفسه وتفنيد مزاعم قِرنه بأدلّة من شأنها أن ترفَع قَدره ويَحُطّ من مقام الخصم بحيث يميل بالسامع عنه إليه.

الثالث: أن تصاغ المعانى والمراجعات صوغاً حسناً وترتَّب على سياق محكم ليزيد بذلک نشاطُ السامع وتنمى فيه الرغبة فى حل المشكل. (الهاشمى، ١٣٦٦ش: ١٨٨)

تستخدم المناظرة إمّا بمعناها العام أو بالمعنى الخاص فهى بالمعنى العام تقريباً تتضمن أى نوعٍ من الأحاديث بين طرفين أو أكثر. سواء أكان الحديث طويلاً أم قصيراً، سواء أكان فيه جانب عدوانى أو مسابقة أو لا، سواء أكان ينتهى بحكم أو لا. ولكن عندما تستخدم المناظرة بالمعنى الخاص، عندها تكون عبارة عن حديث أو كلام ينجز طبقاً لقواعد خاصة. مثلاً يسعى كل واحد من المتخاصمين إلى تعداد محاسنه وذكر مساوئ الطرف المقابل ويشير إلى نفسه على أنّه أفضل من الطرف المقابل، هذه الأحاديث والمناظرات أكثر ما تكون وتحدث بوجود وحكم طرف ثالث وغالباً ما يسعى الحَكَم إلى إرضاء الطرفين المتخاصمين ويصلح بينهما. (بورجوادى، ١٣٨٥ش: ٣٤)

وكانت موضوعات هذه المناظرات مختلفة، منها القضايا الدينية والأخلاقية والسياسية والغرامية. (وهبة، ١٩٨٤م: ٣٩٠) حيث إنّ المناظرات فى هذه الموضوعات غالباً ما تكون لأسباب وبواعث مختلفة على سبيل المثال، أحياناً الهدف من هذه

المناظرات هو إثبات أو نفي مسألة أو عقيدة خاصة، تحقير الطرف المقابل، إظهار المحبة في أحاديث العشق بين العاشق والمعشوق، مدح الممدوح، التفاخر على الأخرى وأحياناً هذه المناظرات فقط للتسلية وإظهار القدرة الفنية في الشعر والنثر.

يعتقد البعض أنّ المعنى الأصلي (البنية الأساسية) للمناظرة هي الحماسة بما فيها من تفاخر بين طرفين وتفضيل شخصه على الآخر، ويأخذ بالاختلافات اللفظيّة وكل شخص يفضل نفسه على الآخر معتمداً على استدلالاته الخاصة وفي النهاية لدينا غالب ومغلوب. (انظر: شميسا، ١٣٧٣ش: ٢٢٧) والمناظرة من ناحية أخرى لديها جذور في المفاخرة لأن التفاخر في الثقافة العربية وفي الأدب الفارسي يعني الامتياز والتفوق فإنَّ هذه التفاخرات، أخذت تدريجيّا خصائص طرفَي المنازعة وظهرت بشكل طرفين وبصورة الأسئلة والأجوبة أو قال وقلت وفي اللغة الفارسية (گفتم و گفتا). (شوشترى، ١٣٨٩ش: ٦٣) بشكل عام تجدر الإشارة إلى أنّ جنس الحوار أو المناظرة جنس عام، يتخذه الكاتب أو الشاعر قالباً فنياً لأغراض كثيرة. (غنيمى هلال، ١٩٦٢م: ٢٦٤) وفي الواقع أنّ المناظرة؛ أسلوب وطريقة حيث إنّها إشارة نوعية للتغيير في أفكار لمجتمع معتقد بقول ما قد مرّ من مرحلة أحادية الجانب وقادرَ على إدراك الآخر حضوره. (محمدى، ١٣٨٣ش: ٧٣)

١ـ ٣ـ سابقة المناظرة

تعود كتابة المناظرة في الأدب العالمي إلى الحضارات البابلية والأكاديّة والسومرية بين النهرين. حيث وجدت إلى الآن أجزاء من عشرات المجادلات والمنازعات باللغة الحالية تعود إلى تلك الحضارات حيث كتبت على ألواح طينية في تلك الفترة. تعود قدمة هذه النزاعات إلى حوالي ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد وهي ممثل لنوع أدبي استمرّ بعد ذلك في الآداب الإيرانيّة والعربية واللغات الأروبيّة في القرون الوسطى. (بورجوادى، ١٣٨٥ش: ٣٢ و ٤١)

يعود استخدام لفظ المناظرة في اللغة الفارسيّة إلى عصورٍ قديمة حيث نستطيع أن نشاهد أول نموذج هذا الأسلوب في الأدب قبل الإسلام وفي الآثار المستبقة من اللغة

البهلويــة. (محمدى، ١٣٨٣ش: ٧٠) ففى الأدب البهلوى أو الإيرانى القديم راجت نزعة شعبية يُقصد فيها إلى شرح وجهتى نظر مختلفتين فى شكل الحوار أو الجدل، أو فى عرض صورتــين أدبيتين متضادتين إحداهما بجانــب الأخرى. وقد بقى لنا من الأدب الإيرانى القديم حوار أدبى عنوانه «الشــجرة الأشــورية.» (غنيمى هلال، ١٩٦٢م: ٢٥٨) ولكن أسدى طوسى هو مبتكر المناظرة فى الشعر الفارسى الدَّرى حيث إنّ مناظراته الخمسة عبارة عن: "عــرب وعجم: العرب والعجم"، "آسمان و زمين: الســماء والأرض"، "نيزه وكمان: السهم والرمح"، "شب وروز: الليل والنهار"، "مغ و مسلمان: المغان والمسلمين"، حيث إنّ الشــاعر تخيّــل بين كل واحدة مــن تلك المناظرات طرفــين وأحضر دلائل علــى تفوّق أحدهمــا على الآخر. وبالتالى كان أحدهما مجيبــا والآخر مجابا. (محمدى، ١٣٨٣ش: ٧٠)

١ـ٣ـ ١ـ المناظرة فى الأدب العربى

غالبــا ما تعــود المناظرة فى الأدب العربى إلى العهد الإســلامى وبعده، فقد أشــير إليه بشــكل غير مباشــر فى القرآن الكريم وتمّ تكليف المســلمين بهذا الأسلوب حيث ورد فى القرآن الكريم "جادلهم بالتى هى أحســن" ولأنّه قد ذكر فى التفاســير "جادلهم" بمعنى "ناظرهم". (رحيمى، ١٣٧٤ش: ٣٥) ويمكن مشــاهدة أمثلة أخرى فى هذا المجال (المفهوم) كما فى سورة هود، والأعراف، ومريم و... ونستطيع أن نعدّ المجادلة التى عُرِفت بالنقائض فى العهد الأموى بين جرير والأخطل، نوعا من المناظرة.

هذا النوع الأدبى موجودٌ أيضاً فى العصر العباســى حيث إنَّ أشهر الأدباء والكتّاب فى هــذه الفترة، جاحظ البصرى (١٦٠-٢٥٥ق) حيث ترك الكثير من الآثار المنظومة والمنثــورة أيضاً فى هذا المجال منها: العرجان والبرصــان، مفاخرة الجوارى والغلمان، فخر السودان والبيضان، الأسد والذئب، و... . (اذكائى، ١٣٨٦ش: ٧)

ولكن قد لوحظت كثرتها عند شــعراء العصــر المملوكى على غير ما كان معروفاً فى الشــعر العربى القديم، ولا يعنى هذا أنها لم تكن موجودة فيه، وإنما قصدت الإشارة إلى أنها أصبحت ضرباً من الالتزام، فما كان عفوياً فى أسلوب الشعر أصبح معتمداً فيه، وما

كان في شعر الأقدمين غير ملتزم، أصبح عند شعراء هذا العصر واجب الالتزام. (باشا، ١٤٢٥ق: ٣٣١)

تعدُّ المناظرة من الأنواع الأدبية التي أهملها الباحثون المعاصرون كلية، على الرغم من أنها تشكل نوعاً بارزاً في قائمة الأنواع الأدبية التي كانت تصوغ محتويات كتب الأدب العربي الإسلامي القديم ولكن لم تُدرَس إلى الآن، المناظرةُ في الأدب العربي الإسلامي القديم دراسة علمية تطرحها نوعاً أدبياً، وتضعها في إطار الأنواع الأخرى التي تُشكِّل مجموع الأدب القديم. (الصديق، ٢٠٠٠م)

٢ـ القسم التطبيقي للبحث

الآثار الأدبية والتي كانت على شكل المناظرة في العصر المملوكي كثيرة نسبةً للعصور السابقة لأنّه كما أوضحنا سابقاً جاء استخدام أسلوب المناظرة في هذه الفترة بشكل الزامي والتزامي والأدباء الذين اهتمّوا بالمناظرة في تلك الفترة كثيرون ومن جملتهم: صفيالدين الحلي، والشابّ الظريف، وعمر بن الوردي، والقلقشندي، وابن نباتة المصري، والسراج الدين الوراق، وبهاء الدين الزهير، والبرعي، والشهاب المنصوري، وابن الرزيق، والصاحب شرف الدين، وابن حجر العسقلاني، وشهاب الدين الخلوف، وابن دقيق العيد و... .

والمناظرات الأدبيّة في هذه الفترة قسمان: منظومة ومنثورة، حيث إنّنا سنأتي على ذكرها وبحثها في الآثار المنظومة أولاً ثم سننكبّ على الآثار المنثورة.

٢ـ ١ـ المناظرات الشعرية

٢ـ١ـ١ـ من حيث طرفي المناظرة:

إن أول وأهم العناصر في بنية المناظرات هو طرفاه يكونان من جنس بشري أو غير بشري يمكن تحليلهما على الأقسام التالية:

٢ـ١ـ١ـ ١ـ المناظرات بين العاشق والمعشوق:

غالباً ما كانت المناظرات المنظومة في هذه الفترة بين العاشق والمعشوق، ويمكن لنا

أن نشاهد نموذجا منها فى أبيات صفى الدين الحلى:

قالت: كحَّلتَ الجفونَ بالوَسنِ قلتُ: ارتقاباً لطيفِكِ الحسنِ
قالت: تَسَـلّيتَ بعـدَ فُرقَتِنا فقلتُ: عن مَسكَنى وعن سكَنى
قالت: تَشـاغَلتَ عـن مَحَبّتِنا قلتُ: بفَرطِ البُـكاءِ والحَزَنِ
قالت: تناسيتَ، قلتُ: عافيتى! قالت: تناءيتَ، قلتُ: عن وَطَنى
قالت: تَخَلَّيتَ، قلتُ: عن جلدى! قالت: تَغَيّرتَ، قلتُ: فى بدَنى
قالت: تَخَصصتَ دونَ صُحبَتِنا فقلتُ: بالغَبنِ فيـكِ والغَبَنِ[1]

(ديوان صفى الدين الحلى، لاتا: ٤٠٩-٤١٠)

إن هذا الغزل، مناظرة بين العاشـق والمعشوق وكلمتا (قالت وقلت) تكررت فى هذه المناظرة عـدا البيت الأخير وأحياناً فى بعض الأبيات تكررتـا مرّتين، حيث إنّه طالما كانت لافتة للنظر وتزيد فى جمال البيت من حيث الاتساق اللفظى. نظم الشاعر فى هذا الغزل، الحديث بين العاشق والمعشوق بصورة جواب وسؤال، وفى المناظرة عنصر جمالى آخر هو نوع إجابة العاشـق بحيث يثير إعجابنا ويزيد جماله بأنّ المعشوقة تسأل سؤالاً ولكن العاشق يجيب بجواب على غير السؤال الذى طُرِحَ وكان متوقعاً.

٢ـ١ـ١ـ٢ـ المناظرات بين الإنسان والشيطان:

يعتبر الشـهاب المنصورى من الشعراء الذين له محادثات خيالية مع إبليس. فى هذا الحديث يصف ليلةً كان يسـيطر النوم الثقيل على عينيـه وحينئذٍ يظهر له إبليس أمامه ويقوم بخداعه. يبدأ المحادثة على النحو التالى:

وليلـةٍ بـتُّ بهـا و الكـرى فى مقلـتى أذيالُـه تسـحبُ
إذ جـاءنى إبليسـها عارضا علـىّ أنواعـاً بهـا يخلـبُ
فقـال لى هل لـک فى غادةٍ فى وجنتيها الصبحُ و الكوكبُ
فقلـت لا، قال و لا شـادن[2] يرنـو بطـرفٍ بالنهـى يلعبُ
فقلـت لا، قـال و لا قهـوة يكسوک كاس الملک إذ تُشربُ

١. الغبن والغبن (بتسكين الباء و فتحها): الخداع
٢. الشادن: ولد الغزال، استعارة للغلام

فقلــت لا، قــال و لا كبشــةٍ خضــراء فالعيــشُ بها طيبُ
فقلــت لا، قــال و لا مطربٍ إذا شــدا عند الصفا يطربُ
فقلــت لا، قال فنــم معرضاً عــنى فأنــت الحجــر المتعبُ

(السيوطى، ١٩٢٧م: ٨٦)

وابن الوردى أيضاً له محادثة بنفس المضمون مع إبليس:

نمــتُ و إبليــسُ أتى بحيلــةٍ مُعتَدَبــه
فقــال مــا قولُكَ فى حشيشــةِ مُطَيَّبــه
فقلــت لا، قــال و لا خمــرةِ كَــرمٍ مُذَهَبَــه
فقلــتُ لا، قــال و لا أمــرَدَ بالبَدرِ اشــتَبه
فقلــتُ لا، قــال و لا مليحــةٍ مكتبــه[1]
فقلــتُ لا، قــال و لا آلــةِ لهــوٍ مطرَبــة
فقلــت لا، قــال و لا نَــردٍ رَجاء المَكسَــبَه
فقلــتُ لا، قــال فنم مــا أنــتَ إلاّ حَطَبَــه

(السبكى، ١٩٦٤م: ١٠١)

كمــا نشــاهد فى كلتا المناظرتين، إبليــس فى بداية كل مناظرة يبدأ بخداع الشــاعر بأســاليبه الماكرة، ولكن يكون جواب الشــاعر فى كل أبيات المناظرة بالنسبة للشيطان جوابا سلبيا بمقاومته للأساليب المخادعة للشيطان يفوز بالنهاية، طبقاً تُرى المناظرات الانتزاعية مع الشــيطان أيضاً فى أشعار صفى الدين الحلى والتى تتشابه مع المناظرات الســابقة الذكر من حيث المضمون والمحتوى وحجم القصيــدة. ولكن نتيجة المحادثة مع الشــيطان متباينة لأنّ صفيالدين الحلى يعتبر أنَّ الإنســان ذو طينة سيئة وكلما يعرض الشيطان على الإنسان شيئاً يقبله الإنسان بقلبه وعقله:

وليلــةٍ طــالَ ســهادى بهــا فــزارنى إبليسُ عنــد الرقاد
فقــال: هــل لک فى شــقفة[2] كبشــية تطرُدُ عنا الســهاد؟!

١. المكتبه:المجتمعة الخلق
٢. الشقفة: القطعة من الخزف، والمراد هنا الحشيشة الخضراء. (باشا، ١٤٢٥ق: ٣٣٣)

قلتُ: نعــم! قــال: وفى قهوةٍ عَتّقَهَا العاصرُ من عهدِ عاد؟!
قلتُ: نعم! قــال: وفى مطربٍ إذا شدا يطربُ منه الجماد؟!
قلــتُ: نعم! قــال: وفى طفلةٍ[1] فى وَجنتيهــا للحيــاءِ اتقاد؟!
قلــتُ: نعم! قال: وفى شــادنٍ قد كُحِلَت أجفانُه بالسّــواد؟!
قلــت: نعــم! قــال: نِم آمنــاً يا كعبةَ الفسقِ وركنَ الفساد؟!

(ديوان صفى الدين الحلى، لاتا: ٦٢٨)

٢ـ١ـ١ـ ٣ـ المناظرات بين الورد (الأزهار)

وقــد تكون المناظرات بين الأزهــار كمناظرة صفى الدين الحلــى، حيث إنّ طرفى مناظرته ورد الزنبق والورد الأحمر. كل من الطرفين يسعى إلى إثبات تفوّقه وجماله على الآخر وقد تميل المناظرة أحياناً لتحقير الطرف الأول للطرف الآخر ومســخرة الطرف المقابــل للطــرف الأول؛ فى الحقيقة قام صفى الدين الحلى فى هذه المناظرة بإضفاء صفة الــروح بتمام خياله إلــى الأزهار وجعل الورد وتتحدث بلســانه وكان موفقاً فى ذلك المحادثة:

قــد نَشَــرَ الزَّنبــقُ أعلامَــه وقــال كلُّ الزَّهــرِ فى خِدمتى
لو لم أكن فى الحســن سُلطانَه مارُفِعــت، من دونِــه، رايتى!
فقَهقَــهَ الــوردُ بــه هازئــاً و قال، ما تَحذَرُ من سَطوَتى؟
وقال للسّوسَــنِ: ماذا الذى يقولُهُ الأشــيبُ فى حَضرَتى؟
وامتَعَــضَ الزنبــقُ فى قولِــه وقــال للأزهار؛ يــا عُصبَتى!
يكونُ هــذا الجيشُ بى مُحدِقاً ويضحَكُ الوردُ على شَيبَتى؟

(ديوان صفى الدين الحلى، لاتا: ٥٥٤)

٢ـ ١ـ ٢ـ من حيث الحجم:

تتبادر إلى البال أنَّ المناظرة بمعناها العام لها حجم واسع وكبير أمّا المحادثات الأدبية

١. يقال جارية طفلة: إذ كانت رقيقة البشــرة ناعمة، وعند الأصمعى الطفلة الجارية الرخصة الناعمة. (نفسه)

فى شـعر شعراء العصر المملوكى متباينة من حيث الحجم وأحياناً تكون بيتا أو بيتين أو ثلاثة أبيات:

قُـل لَـهُ انثَنَـى وَانتَشَـا جُد بوصالٍ منكَ لى إن تَشا
فقالَ لى تبغى وِصَالَ الرَّشَـا وَأنـتَ لا تَبذُلُ منكَ الرُّشَـا
فقلتُ هَذِى مُهجَتى والحَشَـا قال انظروا بالجهلِ كيفَ أنحَشَا

(ديوان الشاب الظريف، ١٤١٥ق: ١٨٦)

قولـوا لرَسَّـامكم بـك الفـؤادُ مُغـرَمُ
قالـوا مَتـى تُذِيبُـهُ فَقُلـتُ حتّى يَرسُـمُ

(ديوان الشاب الظريف، ١٤١٥ق: ٣٠٧)

وأحياناً تتجاوز البيتين وتشـتمل أبيات كثيرة كَشـعر ابـن رزيق حيث قام بوصف العشـق والمعشـوق ووصف علاقته بمعشوقه فى عدة أبيات ثم ينطلق لغرضه الأصلى من الشعر وهو مناظرة بينه وبين معشوقه:

تقـول و كفُّهـا تُلـوى بكفّى أتقصـدُ مَن إذا نَبَـتِ الديارُ
فقُلتُ النَدبَ سـالمَ ذا المعالى لعمركِ من به تسحمى الديارُ
فقالـت إنـه ملـكٌ كـريمٌ يسـيلُ بجودِ راحتـهِ النضارُ
فقالـت و إنـه بطـلٌ كمـىٌّ لـه فى المجدِ قـدرٌ و القتدارُ
فقالـت إنـه لكثـيرُ عفـو لجانيـه مواهبُـه غِـزَارُ
فقلتُ نعـم و ذلک للأعادى سـهامٌ عنـه لم يُغـنِ الفِرارُ
فقالـت إنـه دفَّـاعُ خطـبٍ و معضلـةٍ إذا ضـاقَ الفِرارُ
فقلتُ إذا اكفهرَّ الخطب ليثٌ أظافـر كفِّهِ البيـضُ القصارُ
فقالـت كفُّـه بالجـود يجرى بأوديـةٍ تضيـقُ بهـا القفارُ

(ابن رزيق، ١٤٠٣ق: ٣٨-٣٩)

٢ـ١ـ٣ـ من حيث نوع أفعال المناظرة:

قد استخدم الشعراء مشتقات فعل (قال وقلت) فى المناظرات الأدبية المنظومة لهذه

الفترة وتُعتبرُ مناظرة الصاحب شرف الدين نموذجا بارزاً من هذا النوع:

... فقال: فيضُ دُمُوعٍ تلتذُّهُـنَّ التِـذاذَا
فقلتُ: قد نَضَبَ الدَّمـ ـعُ وابلـاً[1] و رَذاذَا[2]
فقال: مـا ذاک عُذرٌ لُـذ بالدِّمـاءِ مَـلاذا
فقلتُ: عَـوذِی بصبرٍ فقـال: لیس مَعـاذَا
فقلـتُ: جُد لی بوصلٍ فقال: سَـل غیرَ هذَا
فقلـتُ: أتلَفتَ رُوحی فقـال لی: کانَ ماذا؟

(دیوان الصاحب شرف الدین، ١٩٦٧م: ١٨٩-١٩٠)

ولکن عدل بعضهم عن اسـتخدام (القول) کما نشاهد فی مناظرة صفی الدین الحلی واستخدم (المجاوبة) بدل (القول):

عاقَبـتُ مَـن أهـواهُ فی هجـری و أکثرتُ الملامَة
فأجابَـنی: أقللـتَ حبَّـ ـکَ لی، فأبدَیتَ الجهامَة
فأجَبـتُ: إنّ کَرامَـتی فرضٌ علیک إلی القیامَة
فأجابَـنی: مَـن مـا لَـهُ حُـبٌّ فلیـسَ لـه کرامَة

(دیوان صفی الدین الحلی، لاتا: ٤٣٠)

علی أیة حال لا تخلو المناظرات عن فعل یتکرر فی کل الأبیات ویشیر إلی قول کل طرف من المناظرة مساعدا فی بناء البنیة السردیة والاتساق النصی فیها.

٢ـ١ـ٣ـ من حیث البنیة:

البنیة الأساسیة فی المناظرات المنظومة فی العهد المالیک قسمان، وهو طرفی المناظرة ویکتفی الشاعر فقط ببیان حدیث الطرفین، فالنتیجة والحکم لا یأتی علی ذکرها ومثال الأشعار المذکورة سابقا لایزال یدلّ علی هذه القضیة.

١. الوابل: المطر الشدید الضخم القطر، وقد جاء فی نعت الدمع تشبیهاً بالغزارة والکثرة.
٢. الرذاذ: المطر الضعیف، أو السـاکن الدائم الصغار القطر کالغبار أو هو بعد الطلّ، وقد جاء فی نعت الدمع تشبیهاً.

٢ـ٢ـ المناظرات المنثورة

لم تكـن المناظرات الأدبية في العهد المملوكي مختصة بالشـعر فقط، بل كانت هناك كثيرة من المناظرات المنثورة لبيان التفوق والتفاضل بين العناصر المختلفة في هذه الفترة وفي هذه المناظرات يقوم كلا الطرفين بتعبير عن فضائلهما ويعتبران دلائلهما بالأساليب الأدبية الجميلة. وقد تنتهي الحكم بينهما بتفوق كلا الطرفين أو تنتهي بدون الحكم ويجبر القارئ أن يعطي حكما مناسبا. عدد المناظرات المنثورة في هذه الحقبة الزمنية كثير جداً ومواضيعـه مختلفة، مادية ومعنويّة، نحو مناظرات بين عناصر الطبيعة، الأماكن المختلفة، الأشـياء، الحيوانات، النباتات، أنواع العلوم، الإنسان وإبليس و... ومن جملتها نستطيع الإشـارة إلى المناظرة بين مكة والمدينة (علي بن يوسف الزرندي)، مفاخرة بين جزيرة الروضة ومصر (محمد بن أبي بكر الأسـيوطي)، المفاخرة بين الشـمعدان والقنديل (تاج الدين اليماني)، انوار السـعد ونُوار المجد في المفاخرة بين النرجس والورد (تاج الدين اليماني)، مفاخرات مالقة وسـلا (لسـان الدين بن الخطيب)، كاشف الغمة في المفاخرة بين النخلة والكرمة (أبي القاسم النجري)، مناظرة بين القلب والعين (ابن قيم الجوزي)، المقامة الوردية في الرياحين والزهور(السـيوطي)، المفاخـرة بين الورد والنرجس (ابن نباتة) مفاخرة الورد مع النسرين (عزالدين بن غانم المقدسي) و... .

ولا يمكـن لنا أن نقوم بتعريـف كل هذه المناظرات في هذا المجـال لذا نكتفي هنا بتعريف نماذج لها شهرة كثيرة:

٢ـ٢ـ١ـ المناظرة بين الأشياء

هنـاك مثال واضح وبارز للمناظرة بين الأشـياء، وهو مناظرات (السـيف والقلم) والـتي تُـرى في آثار ثلاثة أدباء معروفين في هذه الفترة وهم ابـن الوردي، وابن نباتة، والقلقشندي.

يعدّ ابن برد الأصغر (٤٤٠ق) في الأندلس أول من عقد مفاخرة بين السـيف والقلم وكتبهـا لممدوحه الموفق ابوالجيش مجاهد العامـري وجاء بعده بثلاثة قرون زين الدين عمر بن الوردي ليدوّن مناظرته بين السيف والقلم لمرة أخرى. (غلامحسين زاده والزملاء،

١٤٣١ق: ٢٣)

الف) مناظرة السيف والقلم لزين الدين عمر بن الوردى (متوفى، ٧٤٩ق)

تبدأ هذه المناظرة بمقدمة حول السيف والقلم حيث إنّ أساس وعماد الدولة مبنى على هاتين الوسيلتين وعلى كل حكومة أن يكون لديها هذان الركنان أو أن توفّرهما وأنَّ ابن الوردى كان يُعرِّف تماماً قيمة هذه العناصر ومنزلتها فقد وضعتهما (القلم والسيف) فى المجلس مقابل بعضهما الآخر ودعاهما للمناظرة ليحكم فى أمرهما.

فى هذه المناظرة يفتح القلم الحديث ويقول: «بسم الله مُجراها ومُرساها والنهار إذا جلّاها والليل إذا يغشاها.» (ناجى، ١٩٨٣م: ١١٨) وبعد الحمد والدعاء لله يبدأ بِعَدِّ فضائله: «فإنَّ للقلمَ قصبُ السباقِ فالكاتبُ بسبعة أقلام من طبقاتِ الكتاب فى السبع الطباق جرى بالقضاء والقدر ونابَ عن اللِّسان فيما نهى وأمر...» (السابق) وبعد انتهاء حديث القلم، يكمل السيف الحديث فيقول كما قال القلم، ويذكر الله وقِسما من الآية ٢٥ لسورة الحديد وبعدها ينصرف لوصف نفسه: «قال السيف: بسم الله الخافض الرّافع (وأنزلنا الحديدَ فيه باسٌ شديدٌ ومنافع) ... فإنَّ السيف عظيمُ الدولة، شديدُ الصولة، مَحَا أسطارَ البلاغةِ، وأساغَ ممنوعَ الإساغة، مَن اعتمد على غطره فى قَهرِ الأعداء تعبَ و... .» (السابق: ١١٩) كلا من القلم والسيف ضمن حديثه يصف مساوئ الطرف الآخر وبذلک يحقر الطرف الآخر ويرفع من جانب نفسه:

«قال القلم: ... أنا المخصوص بالرَّاى وأنتَ المخصوصُ بالصدى ، أنا آلة الحياة وأنتَ آلة الردى...

قال السيف: ...ويک إن كنت للديوان فحاسب مهموم، أو للإنشاء فخادمٌ لمخدوم، أو للبليغ فساحرٌ مذموم...

قال القلم: ... أما أنا ابنُ ماءِ السّماءِ، وأليفُ الغدير وحليفُ الهواء وأمّا أنتَ فابنُ للنّار والدخّان وباترُ الأعمار وخَوّان الإخوان...

قال السيف: ... أنا ذو الصيت والصوت ... أنا من مارج من نار، والقلمُ من صلصالٍ كالفخّار ...

قـال القلـم: أنـا أزكـى وأطهر قال السيف: أنا أبهى وأبهر و... .»

(ناجي،١٩٨٣م: ١١٩-١٢١)

ويداومان بهذه المناظرة حتى يقول القلم محاسنه ومحاسن السيف كذا: «قال القلم: ... إن كنت أعلى فأنا أعلم، أو كنت أحلى وأنا أحلم، أو كنتَ أقوى فأنا أقوم ...» (السابق: ١٢٢) وهكذا يعترف السـيف بقدرة القلم لأن يعتبر الممدوح حامه «قال السيف: كيف لا أفضلُك والمَقَرُّ العلايى شـادُّ أزرى؟» وفي المقابل يعترف القلم بفضل السـيف أيضاً لأنـه يعتبر الممدوح ولى أمره: «قال القلم: كيف لا أفضلكَ وهو عزَّ نَصرُه وليُّ أمرى؟» (السـابق) حينما تصل المناظـرة إلى هنا يبدأ الحَكَم بالحديـث وبتوجهه إلى البراهين والأدلّة التى ساقها كلا الطرفين يجد أنَّ لهما ارتباطا وثيقا مع الممدوح. لذلك فقد تحايل وسلّم الحكم للممدوح لكى يهدأ كلا الطرفين ويسكن غضبهما.

والهدف الأساسى فى هذه المناظرة التى وضعها ابن الوردى بين القلم والسيف بتمام قوة خياله؛ مدح الممدوح لأنّه بإحصاء محاسـن هذين العنصرين بلسـانهما ونسب هذه العناصر إلى الممدوح، يعبر القدرة العسـكرية وتدبير حكومة الممدوح ويمدحه بشـكل جيد.

وهنـاك مناظرة أخرى كتبت فى العهد المملوكى وهى رسـالة السـيف والقلم لابن نباتة المصرى (متوفى ٧٦٨ق) وأخرى هى حلية الفضل وزينة الكرم فى المفاخرة السيف والقلـم، لأحمد بن على القلقشـندى (متوفى٨٢١ق). وفى المجموع نسـتطيع أن نقول إن الهدف من المناظرات الثلاث هو مدح الممدوح، حيث تتألف البنية الأساسـية للمناظرة من عدة أجزاء، جزئى المناظرة (السـيف والقلم) والجزء الثالث هو الحكم الذى يحكم بين الطرفين بعد سمع أقوالهما وبالتوجه إلى البراهين والاسـتدلالات التى سـاقاها. قد يكون هناك جزء رابع وهو الراوى والذى يروى بداية الحدث وسيره ونهاية المناظرة. وقد أثر استخدام الفنون البديعيّة منها؛ السجع والجناس والتضمين للآيات والأحاديث والأشـعار إلى جانب فن التشخيص؛ تاثيراً بارزا وهاماً فى قيمة هذه المناظرات. ومن حيث الحجم نسـتطيع أن نقول بأنَّ مناظرة ابن الوردى حجمها أقل نسـبة للمناظرتين السـابقتين، طبعاً لا تنحصر المناظرة بين السـيف والقلم على اللغة العربية وإنّما توجد

أيضاً فى اللغة الفارسية لأنّه فى كل لغة يوجد جدال وصراع بين منطق العقل (الفكرة) ومنطق القوة (القدرة) وكلا من الطرفين قائل بتفوقه وتمييزه على الآخر؛ لذلک فقد سعى الأدباء إلى امتلاک تصور لهذا الجدال ولذلک فقد وضعوا القلم والسيف كرمز لذلک وأجروا كلا من طرفى المناظرة بالدفاع عن نفسيهما بلسان الحال. ولكن بما أنهما من عناصر مهمة لذلک نرى أن نهاية المناظرة بين القلم والسيف غالباً ما تختم بالصلح والصداقة لأن كليهما ركنان أساسيان فى أركان حفظ الحكومة حينما يكونان متحدين معاً وفى جانب بعضهما بعض الآخر.

ب) المقامة الياقوتية فى أنواع الجواهر للسيوطى (متوفى ٩١١ق)

مناظرة السيوطى وهى مناظرة بين عدة جواهر، من المناظرات التى تقع بين الأشياء، بهذه المقامة انصرفت الجواهر فى أحاديثها للمفاخرة لا للمخاصمة ليتعين أيها أفضل وأجمل. تبدأ المناظرة بحديث الياقوت وتنتهى بحديث الفيروز، وتكون المناظرة على الشكل التالى: بدأت كل واحدة من المجوهرات بحمد الله والثناء والدعاء وبعدها انصرفت لذكر محاسنها ومنافعها واستدلت المجوهرات فى أحاديثهم بآيات من كلام الله وأحاديث وأقوال العظماء والكبار ، ولكنها لم تَمِل أبداً لذكر معايب الطرف الآخر من جنسها (المجوهرات الأخرى) وينتهى الحديث والمناظرة بأبيات عن وصف نفسها، والمؤلف لم يحكم فى نهاية المناظرة وإنّما سلّمَ هذه المهمة للقارئ ليقوم بالحكم.

يشير النص التالى إلى جزء من هذه المناظرة:

«فقال الياقوت: الحمدلله الذى خلقنى حسن التقويم وجعلنى أبهى فى العين من الدرر النظيم ... ذكرّنى بصريح اسمى فى القرآن، فى قوله تعالى فى سورة الرحمن كأنهنّ الياقوت والمرجان ... وقال الزمرد: الحمدلله الذى رفع لى قدراً، واسبغ على الحلة الخضراء ... وقال العقيق: الحمدلله الذى جعلنى من الجلة وكسانى أبهى حلة، خصنى باحسن خلة ... وقال الفيروزج: الحمدلله الذى فضلنى بلونين وكسانى حلتين، وجعلنى أدخل فى الكيمياء وفى ادوية العين ...» (انظر: السيوطى، ١٢٩٨ق: ٤٦-٥٥) وكما يرى أن المناظرة لاتقوم بين طرفين بل فيها أطراف كل يسعى لبيان فضله على الآخرين.

٢-٢-٢-المناظرة بين المفاهيم:

ومنها المفاخرة بين العلوم، لأحمد بن على القلقشندى (متوفى ٨٢١ق)؛كتب القلقشندى أبو حفص البلقينى المفاخرة بين العلوم المختلفة. هناك مناظرات بين سبعين ونيف من العلوم تبدأ بعلم اللغة وتنتهى بعلم التاريخ. والقلقشندى فى مقدمته التى أوردها قبل المناظرة يعترف بفضل كل العلوم ويظهر تلك الفضائل لذلك يقول: «اصلُ الشرف فيها من غير منازع، مُجمَعاً على أنه لا شيءَ من العلم من حيثُ هو علمٌ بضارٍّ ولا شيءَ من الجهل من حيثُ هو جهلٌ بنافع.» (انظر: القلقشندى، ١٤٠٧ق، ج١٤: ٢٣٨) فى هذه المناظرة علوم مختلفة مثل: علم الصرف، والنحو، والشعر، والحساب، والفقه، والطب، والموسيقى و... .

تعتبر هذه المناظرة من المناظرات الطويلة فى الأدب العربى والتى وضعت بشكل خيالى بين عدد من العلوم المختلفة. حيث إنّ كل علم يتفاخر على الآخر بتعداد محاسنه وفضائله وخصائصه المميزة على العلم الذى تحدّث قبله وناظر قبله. وأحياناً تستفيد هذه العلوم من الآيات الكريمة ومن ضرب الأمثال لإثبات كلامها.

لا تعتبر رسالة القلقشندى مناظرة أو جدالا بالمعنى المتداول، حيث إنّ تلك العلوم لا تسعى لذكر معايب الأخرى ولا تتحارب فيما بينها، ولطالما كانت هذه الرسالة تبحث فى العلوم المختلفة إلّا أن جانبها التفنى أكثر. (بورجوادى، ١٣٨٥ش: ٦٩٧-٦٩٨) يشير النص التالى إلى جزء من هذه الرسالة:

«فكان أول بادىءٍ بدأ منها بالكلام وفتحَ باب الجدال والخصام، "علم اللغة" فقال: قد عَلِمتم معشر العلوم، أنّى أعمُّكم نفعاً وأوسعكم مجالاً وأكثركُم جمعاً؛ على قطبِ فلكى تَدور الدوائر، بواسطتى تُدرك المقاصِد ويستعلمُ ما فى الضمائر ... ثابَ إليه "علمُ التصريف"... وقال: ... أنا المتكفلُ بتأسيس مَبانيك، والملتزمُ بتحريرِ ألفاظك وتقريرِ مَعانيك، بى تُعرفُ أصولُ أبنيةِ الكلمة فى جميعِ أحوالها، وكيفيةُ التصرُّف فى أسمائها وأفعالها ... فقال "علمُ الشعر": أراكم قد نَسِيتُم فضلى الذى به فَضَلتم، وصَرَمتُم حبلى الذى من أجله وَصَلتُم؛ أنا حُجَّة الأدب، وديوان العَرب؛ على ترِدون وعنّى تَصدُرون وإلىَّ تَنتسِبون، وبى تشتَهِرون...» (انظر: القلقشندى، ١٤٠٧ق، ج ١٤: ٢٣٧-٢٦٣)

٢ـ٢ـ٣ـ المناظرة بين الحيوانات

الجمل والحصان للمقدسى (متوفى ٨٧٥ق)

فى هذه المناظرة التى وصفها المقدسى بين حيوانى (الحصان والجمل) كلا الطرفين يسعى لإثبات تعاليه وتفوقه على الآخر، الجمل الذى يبدأ المناظرة ويبين محاسنه على النحو التالى: «قالَ الجَمَل: أنا أحملُ الاحمال الثِّقال وأقطَعُ بها المراحلِ الطِّوال وأكابدُ الكَلال وأصبرُ على مُرَ النّكال... .» (الهاشمى، ١٣٦٦ش: ٢٥٨) وفى المقابل فإنّ الحصان يشير إلى قدرته وقوته: «فقال الحصان: أنا أحمل على كاهِلى. فأجتهدُ به فى السير و انطلقُ به كالطير، أهجمُ هجومَ اللّيل وأقتحم اقتحام السيل.» (السابق: ٢٥٩) فى هذه المناظرة يراعى كلا الطرفين أصول المناظرة وأياً منهما لم يذكر مساوئ الآخر ولم يقم بتحقيره؛ بل سعى كل منهما لإثبات تفوقه على الآخر وذلک بتعداد خصاله الإيجابية. إلى أنه حينما قام الحصان بإحصاء محاسنه أشار إلى فضائل الطرف الآخر ثم انصرف إلى ذكر محاسنه وخصاله نفسه: «وإن كان الجمل هو الصابر المجرّب، فأنا السابق المقرَّب، وإن كان هو المقتصد اللاّحق، فأنا المقرَّبّ السّابق.» (السابق: ٢٥٩)

وفى نهاية هذه المناظرة فإنّ الجمل يشير إلى جزء من الآية ٧ سورة النحل: «أنا المسخرُ لكم بإشارةِ (وتحمل أثقالكم)» والحصان إلى قِسم من الآية ٩٨ سورة مريم: «وكم حَزَزتُ رؤوس أهل النّفاق حزّاً وكم أخليت منهم الآفاق (هل تحِسُّ منهم من أحدٍ أو تَسمَعُ لهم ركزا)» (السابق: ٢٥٩) فقد استدلّا على صحة كلامهما بكلام الله وأنهيا المناظرة بذلک.

يعتبر حجم هذه المناظرة قليلا بالنسبة للمناظرات الأخرى الموجودة فى هذه الفترة الزمنية. وتشكلت المناظرة من طرفى المناظرة فقط حيث اكتفى الأديب بذكر أحاديث الطرفين وترک الحكم للقارئ. ومن خصائص هذه المناظرة أيضاً، الاستدلال بآيات القرآن الكريم والاستفادة من الأساليب البديعية مثل السجع.

٢ـ٢ـ٤ـ المناظرة بين النباتات:

الف) جواهر الفرد فى مناظرة النرجس والورد، للماردينى (متوفى٧٤٤ق)

تبدأ هذه المناظرة بالحمد وثناء الخالق والنبي الأكرم (ص)، وقد قام الشيخ المارديني قبل الدخول إلى أحاديث هذه المناظرة بوصف مختصر لكلٍّ منهما وأقرَّ بفضل وجمال كليهما ولكن بسبب الاختلاف الذي يُرى بينهما في بعض الأحيان فقد وضعهما موضع المناظرة. ليشرح كل منهما ويثبت تفاضله وتعاليه على الآخر.

تبدأ المناظرة بحديث الورد والتي بعد حمد الله والإشارة إلى آية من آيات القرآن الكريم تبدأ حديثها: «فقال الورد:... فإنَّ الله تعالى فَضَّلني على سائر الزهر بأرفع المراتب ... فيَّ تتجمل المجالس والمحافل ... فالروض ملكي والزهر جنودي، وما فيهم من فرح في اعلامي السلطانية وكيف لا يطيعونني وشكوتي فيهم قوية.» (العطار، لاتا: ٢٠-٢١) عندها تنتفض النرجس وتقول: «وقال: ... صفراء فاقع لونها تسر الناظرين وحق محمد المحمود الذي أوحى إليه قتل أصحاب الأخدود، لقد مدحت نفسك بالكمال مع نقصك ... واحفظ حرمتك وإلا كسرت شوكتك.» (السابق: ٢١)

تتسع هذه المناظرة على صفحات متعددة إلى أن يستخدم فيه كلا الطرفين كل الوسائل المتاحة والممكنة لمدح نفسهما وإثبات تفوقهما على الآخر ويذكر معايب وسيئات الطرف الآخر أيضاً ويستدل كلاهما بالقرآن الكريم وبالأحاديث وببعض الأشعار لإثبات ذلك: «فقال الورد: ...أتجعل مقامك مقامي وأنت من بعض خدّامي، ... أتحسب محاسني مثل محاسنك متناهية وكيف ينقطع عملي ولي صدقة جارية، فشتان بيني وبينك؛ وإن لم تنته عن جدالي قلعت بشوكتي عينك ... فقال النرجس: يا قليل المودة، ويا قصير المدة... أيّ فخر في إحمرارك الشريق[1]، وكم بين التبر[2] والعقيق ... ولي في السبق قصبات وكم جلوت صداع القلب بطيب النفحات. وإذا وفد جيش الزهر، فلي في طلائعة عيون. والسابقون السابقون، أولئك المقربون...

فخجل خد الورد ... وقال: يا نفاضة المحافل. لفاظة المزابل كم بين مهتوك ومصون ومتروك ومخزون ...

فقال النرجس: أنا عيون المجالس وشموع المجالس، وأنيس النديم وقد خلقني الله

١. يريد الاحمرار الذي يخالطه شيء من الصفرة فلايكون خالصاً إلى حمرة ولا إلى صفرة.
٢. التبر: الذهب قبل الضرب.

فى أحسن تقويم ...

فقال الورد: أنا خد الحبيب نصيبى والراح يتلمس ويتمسک بذيل طيبى ... وأنشد:

أنا والراح للأرواح راحة
وكم فى قبض ساقى بسيط وراحة

فقال النرجس: يا قليل الوفاء ... ألم تعلم ان التخليق بالصفرة من امارات النصرة. وقال الجماعة من الحكماء أن من أنحس الأشكال الحمرة.

فقال الورد: هذا لونى مد كنت فى أحشاء الأكمام مضغة، صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة.» (السابق: ٢١-٢٨)

حتى أنهما يريان مكانتهما العالية بسبب مصاحبة المحبوب وعلى ذلک يقومان بتفضيلهما على الآخرين، لأنّهما يعتبران مصاحبة المحبوب مقاماً علياً ويعود بهذه الطريقة فى إثبات تفوقهما: «فقال النرجس:.. فأنا على مقدور ولى الفضل بحضورى فى مقام المقر الشهابى أحمد وأنا المؤيد بفضل ظاهر لا يختفى بحضورى فى حضرة مولانا قاضى القضاة الحنفى. فقال الورد: وهذا مما يؤيد كلامى ويرفع فى الفخر مقامى فكم بلغت بحضرة المخدوم مقصودى ولم يزل إلى المنهل العذب ورودى» (السابق: ٢٨)

وعندما يصل الحديث إلى هذا الحد يتدخل الراوى ليدلى بالحكم ولكنه لم يستطع الحكم بسبب الأدلة القوية والبراهين الواضحة التى ساقها كلا الطرفين ويعطى الراوى الحكم للممدوح الذى هو مالک الراوى والدولة الزمان الفريد وفى النهاية يهدى هذه الرسالة للممدوح.

والمناظرة التى سبق شرحها كتبت بقالب القصيدة فى مدح الممدوح وكوّن بناءه من ثلاثة أجزاء؛ حيث تشكلت من طرفين المناظرة بالإضافة إلى الراوى الذى هو الجزء الثالث والذى قام بتقرير الأحاديث وفى النهاية سلّم الحكم للممدوح، يعطى البداية فى المناظرة للورد ويختم المناظرة بالورد أيضاً. وأحاديثهما واستدلالتهما تعتمد على الآيات والأحاديث والأشعار إذاً يجب القول إنّ ما قام به الماردينى من تصور وتخيل لنوعى من الورود وكتابه ذلک بشكل مسجع كان موفقاً إلى حدٍ كبير.

ب)كشف الأسرار في حكم الطيور والأزهار للمقدسي (متوفى ٨٧٥ق)

هذه الرسالة مناظرة خيالية بين أنواع الزهور والطيور والحيوانات والتي جاءت في ٣٧ فصلا وفي كل منها تحدث نوع من هذه العناصر وينتهي حديثه بأبيات شعرية. تبدأ المناظرة بالنسيم وتنتهي بالعنقا.

نظر المقدسي بعين الفاحص المتفكر في عناصر هذه الرسالة فوجد فيها عالماً آخر يعجّ بالحركة والنشاط يشبه العالم الإنساني فينطّقه ويحادثه ليتعرف خصائصه وأوصافه الدالة على عظمة الخالق وحكمته في خلقه ثم يحكي لنا قصة الحياة الدنيا والآخرة و«تزداد الرموز تنوعا لتنوع أفراد البشر كقدوم الربيع، انقلاب الشتاء، شرود البرد، فرح الأقحوان و... .» (صبحي حباب، ١٤١٠ق: ١٦٧-١٦٨) وفي الواقع شرح فيه المؤلف أحوال أهل العزلة والتصوف، وذكر حكمهم على لسان الطيور والأزهار والحيوانات واستمد عناصرها الأولى وحكمها المتناثرة من القرآن الكريم والحديث النبوي ومن التصوف والزهد اللذين انتشرا في هذا العصر كثيراً. (باشا، ١٤٢٥ق: ٤٥٦ و ٤٦٥) والنص التالي يشير إلى طرف من هذه المناظرة:

«... فتنفس البنفسج ... وقال طوبى لمن عاش عيش السعداء، ومات موت الشهداء، ... إنني اوخذ ايام حصولي، فأقطع من أصولي وكم ممن يتقوى على ضعفي ... ... فنادى على نفسه الأقحوان ... وقال قد آن ظهوري وحان حضوري، واعتدل فصل وجودي وطاب في الحضرة شهودي ... فبياضي هو العلم المعلم واصفراري هو السقم المبرم ... قال الديك ... جعلت الاذان لي وظيفة، اوقظ به من كان نائماً كالجيفة وأبشر الذين يدعون ربهم تضرعا وخيفة... فقالت العنكبوت: إن كان بيتي أوهن البيوت وحبلي كما تزعمين مبتوت، فإنّ فضلي عليك في سجل الذكر مثبوت، أما أنا فما لأحد عليّ منّه ولا لامّ عليّ حنّه... .» (انظر: المقدسي، ١٨٢١م: ٩-١١٤)

النتيجة

كان استخدام المناظرة في العهد المملوكي بشكل التزامي حيث استخدمت المناظرات الأدبية في هذا العهد بمعناها العام والخاص فمثالها العام في الأحاديث الوديّة أو العشقية

ونموذجها الخاص فى الأحاديث العدائية التى دارت بين عناصر مختلفة.

لطالما كانت المناظرات الشعرية شاملة للمناظرات بين البشر حيث يعتبر أكثرها الحديث بين العاشق والمعشوق. ولكن أيضاً فى بعض الأحيان كان هناك مناظرات بين الأزهار أو إبليس مع الإنسان حيث إنّ اغلب أحاديثها تتشكل من طرفى المناظرة ودون حضور الحكم. والمناظرات المنظومة فى العهد المملوكى من حيث الحجم نوعان: ١- طويل ٢- قصير، وفى معظم الأحيان تتضمن تلك المناظرات لفظة قول والذى كان تكراره عدة مرات حيث يضيف جمالاً على النص.

أمّا فى أكثر المناظرات المنثورة وعلى العكس تماماً من المنظومة فإن هناك لا توجد أحاديث بين البشر بل يقتصر الحديث على عناصر مختلفة من أشياء ونبات وحيوان وعناصر طبيعية ومفاهيم و... والتى كانت فى كثير المواضع لها إمّا جانب تعليمى أو دينى أو مدحى وفى بعض الأحيان نجد لها الجانب الترفيهى فقط.

والهيكل الأساسى للمناظرات المنثورة يشتمل على طرفى المناظرة حيث إنّ فى الجزء الأول يقوم أحد طرفى المناظرة بإظهار محاسنه وفضائله ويتفاخر بنفسه ويحتقر الطرف الآخر. وفى الجزء الثانى؛ يقوم الطرف الآخر بالدفاع عن نفسه وفى بعض هذه المناظرات هناك جزء ثالث يتضمن الراوى والذى يبين سير المناظرة ويدلى بالحكم من خلال توجهه إلى أحاديث الطرفين والتى غالباً ما تكون مستدلة بآيات وأحاديث وأقوال الكبار وأشعار الشعراء، واستخدام الفنون البديعية مثل السجع أيضاً كان له تأثير لايستهان به فى جمال نصوص تلك المناظرات.

المصادر والمراجع

ابن منظور، جمال الدين. ١٤٠٥ق. لسان العرب. ج ٥. قم: أدب الحوزة.
أحمد بدوى، أحمد. ١٩٩٦م. أسس النقد الأدبى عند العرب. القاهره: نهضة مصر.
اذكائى، برويز. ١٣٨٦ش. «منشأ مناظرههاى ادبى». گوهر گويا. س١. ع١. صص ١٠-١.
باشا، عمر. ١٤٢٥ق. تاريخ الأدب العربى (العربى المملوكى). دمشق: دارالفكر.
بن رزيق، حميد بن محمد. ١٩٨٣م. ديوان ابن رزيق. تحقيق محمد عبدالمنعم خفاجه. سلطنة عمان: وزارة التراث القومى والثقافة.

بورجوادی، نصرالله. ١٣٨٥ش. لغة الحال فی العرفان والأدب الفارسیین. تهران: هرمس.
الجرجانی، علی بن محمد. ١٤٠٧ق. التعریفات. تحقیق وتعلیق عبد الرحمن عمیرة. ط١. بیروت: عالم الکتب.
الحلّی، صفی الدین. لاتا. الدیوان. بیروت: دار صادر.
داد، سیما. ١٣٧١ش. فرهنگ اصطلاحات ادبی. تهران: مروارید.
دهخدا، علی اکبر. ١٣٧٣ش. لغت نامه. تحت إشراف محمد معین وجعفر شهیدی. ج١٣. تهران: دانشگاه تهران.
رحیمی، مهدی. ١٣٧٤ش. المناظرة فی الشعر الفارسی (منذ البدء حتی پروین اعتصامی). أطروحة دکتوراه: طهران: جامعة تربیت مدرس.
رزمجو، حسین. ١٣٧٠ش. انواع ادبی و آثار آن در زبان فارسی. مشهد: آستان قدس رضوی.
السبکی، تاج الدین أبی نصر عبدالوهاب بن علی بن عبدالکافی. ١٩٦٤م. طبقات الشافعیة الکبری. تحقیق عبدالفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحی. الجزء العاشر. لامک: دار إحیاء الکتب العربیة.
السیوطی الشافعی، عبد الرحمن. ١٢٩٨ق. مقامات. ط١. قسطنطنیة: إدارة الجوائب.
السیوطی، عبدالرحمن. ١٩٢٧م. نظم العقیان فی اعیان الاعیان. حرّره فیلیب حتی. بیروت: المکتبة العلمیة.
شرف الدین الانصاری، الصاحب. ١٩٦٧م. الدیوان. تحقیق عمر موسی باشا. دمشق: مجمع اللغة العربیة.
شمیسا، سیروس. ١٣٧٣ش. انواع ادبی. تهران: فردوس.
شوشتری، مرتضی. ١٣٨٩ش. المناظرة فی الأدب الفارسی. کیهان فرهنگی. ع ٢٩٠-٢٩١.
صبحی حباب، أحمد عبد القادر صلاحیة. ١٤١٠ق. «التعریف بکتاب: کشف الأسرار عن حکم الطیور والأزهار لابن غانم المقدسی». التراث العربی. العدد ٣٧-٣٨
الصدیق، حسین وخالد الفردی. ٢٠٠٠م. «المناظرة فی الأدب العربی الإسلامی». حلب .www tawtheegonline.com
الظریف، الشاب. ١٤١٥ق. الدیوان. قدّمه وشرحه صلاح الدین الهواری. ط١. بیروت: دار الکتب العربیة.
العطار، عزت. لاتا. مناظرات فی الأدب. القاهرة: لجنة الشبیبة السوریة بمصر.
غلامحسین زاده، غلامحسین وکبری روشنفکر وابراهیم خدایار ونعیمة حسوکی. ١٤٣٢ق. «دراسة مقارنة لمناظرات السیف والقلم بین الأدبین العربی والفارسی (الیعقوبی الطوسی وابن نباتة المصری نموذجاً)». مجلة العلوم الإنسانیة الدولیة. العدد ١٨(٤). صص ٢١-٣٦.
غنیمی هلال، محمد. ١٩٦٢م. الأدب المقارن. بیروت: دارالعودة ودارالثقافة.

القلقشـــندى، أحمد بن على. ١٤٠٧ق. صبح الأعشـــى فى صناعة الإنشـــاء. شرحه محمد حسين شمس الدين. ط١. الجزء ١٤. بيروت: دارالفكر.
محمدى، هاشم. ١٣٨٣ش. «المناظرة فى الأدب الفارسى». كتاب ماه (ادبيات وفلسفه). ٧٨
معين، محمد. ١٣٨١ش. فرهنگ فارسى (يک جلدى). ط٣. طهران: سُرايش.
المقدســـى، عزالدين بن غانم. ١٨٢١م. كشـــف الأســـرار عن حكم الطيور والأزهار. مدينة باريز: دار الطباعة السلطانية.
ناجى، هلال. ١٩٨٣م. «مناظرتان بين السيف والقلم». المورد. العدد ٤.
وهبة، مجدى. ١٩٨٤م. معجم المصطلحات العربية فى اللغة والأدب. ط٢. بيروت: مكتبة لبنان.
الهاشمى، أحمد. ١٣٦٦ش. جواهر الأدب. ط١. قم: استقلال.